# روح الإسلام في العبادة

للأستاذ عمر الدسوقي

من ذلك المخلوق المتجبر الذي تعنو له جباه الضواري في أدغالها، وتفرق من طلعته الوعول في معاقلها، وعمن السمك في مساربه هلعاً لدنوه، وتهابه الطيور في أوكارها، والصلال في أجحارها؟! هو الإنسان! درج على الأرض فكان سيدها المطاع، ولم تعجزه إلا تلك القوى السماوية، من ريح زفوف عاتية، أو رعود قاصفة مدوية، أو زلازل تميد لها الأرض تحت قدميه، أو براكين تثور محنقة غاضبة أمام عينيه. كيف يدرأ شرها، أو يحوز رضاها؟ سجد لها وتضرع، وتزلف بالقربى والابتهال. ولكنه خلق وفي نفسه عنجهية وكبرياء، فأخذ على مر القرون يتنكر لها، ويشمر عن ساعده لتسخيرها وصرعها، وكلما ذاق لذة الظفر مرة، قوى إيمانه بقدرته، وجلال عقله، وكفر بها، ولج في كفرانه؛ بيد أنه أحس من أعماق فؤاده نداء خفياً أن ثمة إله آخر، أنت والدنيا والطبيعة صنع يده القادرة! ما بالك كلما حز بك أمر، أو تكأكأت عليك المصائب، أو خطف الموت فلذة كبدك وأحباءك، تنادي في ذلة وضراعة ذلك الإله الذي لا تراه، أن رفقاً يا رباه، فليس لي حول ولا طول أمام جبروتك وعظم ملكوتك. قرت في جنانه تلك العقيدة فهدأ بلباله، وطفق يلهج بما يكنه فؤاده من حب ومعرفة بالجميل، وندم وتوسل، لذلك الإله الدائم اليقظة، الذي ينشر رحمته على الدنيا جمعاء. وهل الصلاة والعبادة سوى مظهر من مظاهر ذلك الشعور الذي يفيض به قلب الإنسان؟

فكر في كنه ذلك الإله، ثم فكر حتى أجهده الفكر، وكبا عقله في الميدان صريعاً، وزين له الشيطان أن يصور ذلك الإله ويرمز له، ويعبد الرمز تقرباً إلى الله وزلفى؛ ثم أتى عليه حين من الدهر نسي مغزى هذه الرموز والأصنام، فخالها آلهة قادرة، يتحكم كل منها في شأن من شئون العالم؛ وتوهم أن لها ما للإنسان من شهوة ورغبات، وإحساس وشعور؛ وما دام الإنسان لا يقر عيناً ويطيب نفساً إلا إذا عل من معين المادة حتى روى، فكذلك الآلهة لا بد لها من القرابين والضحايا. شاد المعابد والهياكل وأخذ يتعبد كما زخرف له الشيطان؛ ولهذا كانت العبادة عند قدماء الهند تتألف من الطهارة والقرابين، وظلت هكذا ردحاً من الزمن غير قصير، حتى آب الإنسان لرشده وارتقت الفكرة الدينية عند فلاسفة الهند الأقدمين، ففهموا للطهارة والقربى مغزى غير ما أدرك أسلافهم؛ بيد أن البرهمية لم تحد قيد شعرة عن إيمانها بالقربان، ولا سيما بعد أن قويت عقيدة الدهماء بالكهنة، وما حبتهم الآلهة من فضائل خفية هي حبس عليهم وعلى ذرياتهم من بعدهم

اعتقد طغام الناس أن الآلهة لن تتقبل القربان، إلا إذا باركه الكاهن، وقدمه بيده، وبطريقة معينة لا تغيير فيها ولا تبديل، مرتلاً خلال ذلك أناشيد وأدعية، يرددها لسانه، ولا يحس بها جنانه، بينما يقف المتقرب مكتوف اليدين يسمع ويرى دون أن يضرب بسهم، أو يفوه بكلمة، في هذه العبادة التي أقيمت من أجله. لم تكن العبادة تقدر بسيرة المتقرب الخلقية، وفضائله ومزاياه، أو رذائله ونقائصه، ولكن بحذق الكاهن وبراعته

---

يكون اسماً للأفعال المستحسنة كالإنسانية. والثاني أن يكون من المرء فيجعل اسماً للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة فيكون كالرجولية؛ وذلك أخص من الإنسانية، إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء، والمروة أخص بكثير مما يكون فضيلة للمرأة يكون ذاية [رذيلة] للرجال كالبله والخفر والبخل والجبن، ولهذا قيل الخلايق الرجال [خلايق الرجال] أرذل أخلاق النساء، فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن.»

بشر فارس

فى تأدية المراسيم الدينية غير متلعثم اللسان ، أو جامح اليد ، وإلا بطل ثوابها وحبط عملها ؛ وما على المتعمد إلا أن يعتقد بأن الآلهة سوف تسبغ عليه أبراد الرحمة ضافية ، جذلاً بما قدمت يداه

أما الزرادشتيون ، والصابئون من الفرس ، فقد عاشوا فى دنيا من الصلوات والدعاء ؛ فكان الزرادشتى يتمتم بالدعاء ، إذا عطس ، أو قلم أظفاره ، أو قص شعره ، أو حاك ثيابه ، أو طهى طعامه ، أو أشعل مصباحه ، ليلاً ونهاراً ، لا يكل ولا يمل

دانوا بالعبادة بادئ ذى بدء لآلهتهم « أورمزد » ، ثم ما لبثوا أن قدسوا السماء وبروجها ، والأرض وجبالها ، والوحوش الكاسرة ، والأشجار المتباينة ، وكان لنبات القمر[1] منزلة فى نفوسهم لا تسامى

وما كانت عبادتهم سوى تكرار صيغة من الدعاء ، فقدت ما بها من حرارة ، وذهب مالها من طلاوة وتأثير بكر الزمان ومر العشى . أجل ! إن المثل الخلقية كانت جلية عند بعض مفكريهم ، ولكن الشعب لم يدرك لها رسماً . أضف إلى ذلك أن الكهنة خصوا أنفسهم بالحياة الروحية ، وحرموها على سواهم من الناس ؛ كما شيدوا حصوناً من القداسة كانت لهم معقلاً يباعد بينهم وبين غيرهم ، ويحول بين الناس وبين المتعة الروحية السامية ؛ لأن الكهنة ابتدعوا نوعين من العبادة ، أولهما حكر عليهم وعلى طائفتهم ، وثانيهما مباح للناس أن يساهموا فيه[2]

أما اليهودية فجاءت خلواً من الأوامر التى تحث على الصلاة ، اللهم إلا صيغة واحدة من الدعاء يلفظ بها رب الأسرة ، حين يدفع جُعل الكاهن ، أو يتقرب بباكورة ماشيته وزرعه ، مثنياً فيها على الله أن مكنه من القيام باستثمال أوامره ، ومتوسلاً إليه أن يسبغ بركاته على بنى إسرائيل

ثم سمت الفكرة الروحية حول الذات العلية ، عند عامة اليهود ، ووعاظهم ، واختفت عقيدة التجسيم من أفئدتهم ، وأدرك الناس أن العبادة شرعة يصل بها العبد إلى مولاه ؛ ومن ثم أصبح اليهود بالعرف والعادة أمة ذات صلاة ، على الرغم من فقدان النص الصريح فى شريعتهم . ولكن الصلاة عادت آلية فى كثير من الأحيان ؛ لأن الشعب لم يجد مناصاً عن طلب الكاهن ليؤمهم ، إذ لم يكن بين أيديهم تشريع خاص من الله يرجعون إليه ؛ ونفقت سوق الكهنة وأخذوا يبيعون كلمات الله بثمن بخس دراهم معدودات . ألم يعنفهم القرآن على ذلك الجرم فى سورة البقرة مخاطباً بنى إسرائيل : « ولا تَشْتَرُوا بآياتى ثمناً قليلاً ، وإيَّاىَ فاتَّقُون » ؟؟

ثم مثلت تعاليم المسيح تطوراً جديداً فى شعور الإنسان الدينى وقدرت الصلاة حق قدرها ، واقتفى الحواريون خطى إمامهم فعكفوا على عبادة الله وحمده ؛ ولكن المسيحية ، جاءت كاليهودية ، خلوا من قواعد معينة ، ونظم محدودة ، يسترشد بها الدهماء فى صلاتهم ، فتركوا على مر الزمن ألعوبة فى يد القسيسين الذين أخذوا على عاتقهم ، تنظيم العبادة ، وبيان أوقاتها ومراسيمها ؛ ومن ثم ألفت كتب الصلاة والأنظمة الدينية ، والمجالس الكنسية ؛ لتبين للناس ما يعتقدون وكيف يتعبدون ؛ ومن ثم برزت للوجود عبادة الرهبان الآلية ، وأناشيدهم وترتيلاتهم التى لا روح فيها ؛ وأخذ الناس يهرعون إلى الكنائس يوماً من كل أسبوع ، ليأخذوا ما فاتهم من الغذاء الروحى خلال الأيام الستة الأخرى .

كانت هذه حال الديانات فى القرن السابع الميلادى ، حين سطع نور الرسالة المحمدية فى أفق صحراء العرب ، يهدى الناس إلى دين جديد ، يشبع نهم نفوسهم ، ويسمو بأرواحهم إلى الدرجات العلى . دع جانباً ما كانت تهيم فيه الأمة العربية ذاتها ، من ضلال ، وفساد فى العقيدة ، وإسفاف فى الفكرة الدينية ، وعجز عن إدراك عظمة الإله وقدسيته ، وطوافها بأصنام من الحجر الصلد ، لا تحير جواباً إذا نودیت ، أو تنفع إذا دعيت ، أو تشع فى الفؤاد نوراً أو تبعث فى الروح يقظة إذا عبدت وقدست .

نفذ الإسلام إلى قرارة الروح الإنسانية ، ورأى تحرقها للافصاح عن حبها وشكرها لله ، ففرض صلاة ، تسمو بها النفوس ، وتنبل الأخلاق ، وتسمو العقول ؛ وجعلها على أوقات ، حتى لا يسبح الفكر الإنسانى فى عالم الماديات ، وينسى غذاءه الروحى . وقد أوضح صاحب الرسالة عليه السلام كيفية أدائها قولاً وفعلاً ، لئلا يترك الناس فوضى فى عباداتهم .

وغدا المجال فسيح المدى أمام كل فرد ، ليعبد الله بقلب يفيض حباً وضراعة وإخلاصاً .

---

(١) يسمى بالسنسكريتيه Soma ، وعند الزرادشتيين Homa

(٢) راجع the Gentile and the Jew لمؤلفه Döllinger ص ٣٩٨ الجزء الأول .
ليس للزند أفستا سوى مجموعة من الصلوات والأدعية والتوسلات ، لعدد كبير من الآلهة ، يمثل « أورمزد » بينها المكانة الأولى .
راجع كذلك ten Great Religions لمؤلفه Clarke ص ١٨٧ ، ٢٠٢

إن الصلاة التى تؤدى ، والنفس تعمرها الخشية والخشوع ، لجديرة أن تجعل من الإنسان مَلَكاً يغمر الناس حباً وحناناً وخيراً وإحساناً ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر »

وهاك ما قاله أحد كتاب الإنجليز مرة : تتجلى عظمة الإسلام فى أن معابده ليست مما تشيدها الأيدى ، وأن المسلم يستطيع تأدية صلاته فى أى مكان شاء ، تحت القبة الزرقاء ، أو على ظهر البسيطة »[1] أى بقعة يصلى فيها المسلم مخلصاً لله حنيفاً فهى له مسجد « جعلت لى الأرض كلها مسجداً ، وتربتها طهوراً »[2]

لم يقدر المسيحيون ما فى صلاتنا من قوة روحية ومعنوية ، ونبى الإسلام يقول : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » لأنه يناجى ربه ويجرد روحه أمام بارئه دون وساطة أو شفيع . وقد ثبت عن الثقاة أنه كان يبكى ، وينتحب فى صلاته ، ويتململ تململ السليم تضرعاً إلى الله ، وإنابة له .

لا رهبانية فى الإسلام ؛ لأنه دين سمح سهل ، يكفل خيرى الدنيا والآخرة ، ولم يدع أى شىء يحول بين العبد وربه : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيبُ دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» وهذا ما جعل الإسلام يهزم البوذية والزرادشتية فى عقر دارهما ، ويدخل الناس فيه أفواجاً من كل أمة ونحلة ؛ هرباً من عتو الكهنة واغتصابهم لحريتهم ، وتحكمهم فى أرواحهم[3] .

كل مسلم مكلف بمعرفة دينه ، والتفقه فيه ، فلا طوائف دينية فى الإسلام ، ولا كهنة حباهم الله القداسة والقربى ، بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط ، أكرمهم عنده أتقاهم . والتشفع بالأولياء ، فى شرعة الدين الحقة ، ضرب من البدع وانحراف عن جادة الصواب ، وروح الإسلام .

ربما توهم بعض الناس أن التقرب إلى الله بإراقة دماء الأضحية من تعاليم الإسلام ، ولكن هذ باطل لأن نحر الأضاحى فى عيدنا الأكبر تذكرة بما قام به سيدنا ابراهيم لا غير ، فضلاً عما فيه من إطعام البائس والفقير ؛ ولذلك يُهدى ثلثها ويُتصدق بثلثها ، ويُؤكل ثلثها الباقى .

جعل الإسلام طهارة البدن شرطاً فى صحة الصلاة ، وفى الوقت ذاته نص على أن مجرد الطهارة البدنية لا يغنى أمام الله فتيلاً ، إذا لم تصحبها طهارة فى الروح ، وإخلاص فى القلب ، وخلوه من الكبر والرياء ، والحسد والبغضاء .

يستقبل المسلمون جميعاً مكة فى صلاتهم ؛ حتى يظل مهد الإسلام الذى انبثق منه هذا النور الفياض ، والذى شاهد أشعته الأولى تبدد دياجير الجهل ، ملء سمع المسلمين وأبصارهم ؛ وحتى يتمثلوا موطن ذياك الصراع العنيف بين الحق وصولته ، والباطل ودولته ، وكيف حطمت الأصنام وطهرت الأرض من أدران البغى والعدوان ، والعشق والدعارة ؛ وحتى يتذكروا أن إخوانهم فى مشارق الأرض ومغاربها يشاطرونهم شعورهم ، ويولون وجوههم صوب هذه البقعة المباركة كما يتوجهون ، وأن المسلم عضو فى جماعة عظيمة تملأ فجاج الأرض ، يربطها دين واحد ، ويحفزها رجاء واحد ، وتؤمن بإله واحد .

تلك هى روح الإسلام فى فرع واحد من فروع العبادة ، ولولا خشية الإطالة لبينت ما فى الصوم والزكاة والحج من فكرة سامية وروح عالية .

محمد الدسوقى

(١) راجع Our Indian Muslamans لمؤلفه Hunter ص ١٧٩

(٢) حديث شريف

(٣) راجع كتاب الدعاية الاسلامية للسير توماس أرنولد « الاسلام فى بلاد فارس »